الاحتلال الفرنسي للأغواط وضواحيها سنة 1852م وجرائمه.

د. بن عتو بلبروات*

تمهيد: لم يحظ تاريخ مدينة الأغواط وأحوازها باهتمام الباحثين الجزائريين، خصوصا في فترة الاحتلال الفرنسي للأرضي الجزائرية بين 1830-1962، رغم توفر الكتابات التاريخية الفرنسية وعلى رأسها كتابات الضباط العسكريين الذين كان لهم دورا فاعلا في أحداث الاحتلال. ومن هذا المنطلق طرحت جملة من التساؤلات التي لم نجد لها إجابة وافية في كتابات مؤرخين جزائريين بارزين، تتمحور حول خلفيات امتناع مدينة الأغواط عن مساندة الأمير عبد القادر ومهادنتها للاستعمار الفرنسي، ولماذا جنى الأغواطيون المأساة سنة 1852، من حصار وتدمير وقتل وتشريد واغتصاب ونهب رغم سياسة الولاء للفرنسيين منذ 1844؟

وعلى هذا الأساس نحاول تسليط الضوء على مقدمات ووقائع الاحتلال الفرنسي للأغواط وضواحيها، والمقاومة التي أبداها الأغواطيون دفاعا عن مدينتهم وعن إخوانهم الثائرين، من قبائل أخرى، رغم مهادنتهم للفرنسيين الذين لم يجدوا بدا سوى الانتقام من سكان الأغواط ومناصري ثورتهم التحريرية، وهم عزل بدون سلاح، لترتكب عندئذ قيادة الجيش الفرنسي "جرائم ضد الإنسانية"، وتبحث بعد ذلك عن مبررات وأعذار لا ترقى إلى مستوى تبرئة الجيش الفرنسي من أعماله القذرة، وهو ما نوضحه فيما يلي:

1-الأغواط وأحوازها ضمن مشاريع فرنسا في الصحراء: كانت الأغواط في فترة الاحتلال الفرنسي والفترة التي سبقتها، مدينة صغيرة، تقع في أقصى الحدود بين التل والصحراء، تبعد عن مدينة الجزائر بـ110 مراحل (300 كيلومتر)، و94 مرحلة عن المدية، و80 مرحلة عن بوغار، كما تعتبر من جهة أخرى همزة وصل بين الجنوب الوهراني والجنوب القسنطيني.

*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة الجيلالي اليابس- سيدي بلعباس.

وفيما يتعلق بتصميمها المعماري فهي مدينة محصنة منذ الفترة العثمانية إذ يحميها سور مستطيل الشكل مدعم بثلاثة أبراج مصممة في مواضع مرتفعة، ويعتبر البرج الأوسط هو الأعلى ارتفاعا من البرجين الآخرين. وبفضل موقعها الاستراتيجي وتطور نسيجها الحرفي ونشاطها التجاري، حازت الأغواط لقب عاصمة قصور الصحراء.

وبشأن أحوازها وضواحيها ذكر الجغرافي الأغواطي عبد الدين، أنها تزخر بالفواكه مثل التمور، التين، العنب، السفرجل، الرمان، وفاكهة الكمثرى، مع ازدهار تجاري واهتمام زراعي، حتى أن العقارب والفئران لا تقترب من المدينة. وما نؤكد عليه أن أحواز الأغواط تتمتع تربتها بخصوبة عالية، وهناك العديد من البساتين والجنائن التي تكثر بها الخضر والفواكه.[1]

وانطلاقا من هذه الأهمية الاستراتيجية لمدينة الأغواط، صنفت هذه الأخيرة كمركز أمامي لابد من السيطرة عليه شأنها شأن قصور صحراوية أخرى موازية لها أفقيا باتجاه بسكرة، ويندرج ذلك ضمن مشاريع فرنسا الاستعمارية في أعماق الصحراء الجزائرية والصحراء الكبرى التي تبلورت خلال المرحلة التاريخية الممتدة بين 1850-1950، فقد برمجت مشروعين رئيسيين أثارا الكثير من الضجيج في أجواء الصحراء الهادئة، في ذلك الزمن، وهما مشروع مد السكة الحديدية العابرة للصحراء، للربط بين مستعمراتها في الشمال الإفريقي ومستعمراتها في السودان الغربي. ومشروع البحر الداخلي للصحراء حيث تتواجد الشطوط الواقع سطحها تحت مستوى البحر وهي شطوط جنوب بسكرة وشمال الوادي وشط الجريد التونسي. ناهيك عن طموح فرنسا في التحكم في تجارة القوافل بين الصحراء والشمال.[2] وسخرت سلطات الاحتلال الفرنسي لذلك، شبكة عملاء ومخبرين جزائريين متعاونين معها، أشهرهم كان الشيخ عثمان شيخ توارق غدامس، والشيخ حمزة قائد ورقلة (المتوفي بالجزائر العاصمة سنة 1862)، والشيخ أحمد بن سالم [3] شيخ الأغواط ومجموعة أخرى من أصحاب الزوايا وبعض الطرق الصوفية المنحرفة عن المقاومة.[4]

2-الأغواط: من مناوءة الأمير عبد القادر إلى مهادنة الاحتلال الفرنسي. إذا تمكن الأمير عبد القادر من السيطرة على بلدة أو واحة عين ماضي مهد الطريقة التجانية في جانفي 1839 وطرد عائلة التجاني منها، وهدم أسوارها وأبراجها التي أتعبته [5] ونعتقد أن الغرض من تحويل عين ماضي إلى أطلال هو حتى لا تكون حصنا منيعا لأعدائه في المستقبل باعتبار أن الأمير كان

يدرك تأرجح ميزان القوى العسكري لصالح فرنسا الاستعمارية. وفي المقابل نرى أن الأمير عبد القادر لم ينجح في واحة الأغواط القريبة من عين ماضي بمسافة تقدر بـ 70 كلم رغم محاولاته في عديد المرات، حيث فقد خلالها أحد خلفائه على يد مقاتلين أغواطيين، فتعهد الأمير عبد القادر بمعاقبتهم لما تسنح له الفرصة ويذكر الفرنسيون أنه توعد باقتلاع عيون كل سكان الأغواط الذين يقعون في قبضته.[6] لكن نتساءل عن مدى صحة هذا التوعد خصوصا أنه يعمم بين جميع الأغواطيين.

ويورد المؤرخون الفرنسيون أن أحمد بن سالم، حاكم الأغواط منذ 1828 قد تمكن لمرتين متتاليتين من صد ودفع هجمات جيش الأمير عبد القادر عن الأغواط لكننا لا نعلم زمان هذه الهجمات ونعتقد أنه هاجمها بعد استيلائه على عين ماضي أي في الفترة الواقعة بين 1839 و1844، لأن في هذه السنة (1844) احتمى أحمد بن سالم حاكم الأغواط بفرنسا طالبا من حاكمها العام بالجزائر تفويضه لقب "خليفة الأغواط قائلا له في رسالته ما نصه: " ...إلى يومنا هذا، كل السلاطين المسلمين الذين أسررت لهم خدعوني، فوجدت على ما أعتقد الراحة في عدالة السلطان الفرنسي."[7]

وفي 27 ماي 1844، دخل الجنرال ماري Le Général Marey مدينة الأغواط برفقة جيشه وقام بتنصيب أحمد بن سالم خليفة على الأغواط، وفي سنة 1847 جدد ابن سالم البيعة والخضوع للاحتلال الفرنسي بين يدي الدوق دومال Duc D'Aumale الذي تقلد منصب الحاكم العام بالجزائر بين 11سبتمبر 1847 و03 مارس 1848.[8]

وعليه، نلاحظ أن الفرنسيين منذ ظهورهم في الأغواط سنة 1844، عرفوا هدوءا نسبيا في شمال الصحراء على خط يمتد من بسكرة إلى الساحل، وتركوا جبال أولاد نايل وجبل عمور، بدون مراقبة، وهو الوضع الذي استغله شريف ورقلة محمد بن عبد الله[9] الذي رأى في نفسه الأمير عبد القادر الجديد، حيث تمكن من تعبئة قبائل الصحراء الشمالية وتحديدا قبائل الأربعاء الشراقة الأربعة وقبائل أولاد نايل، ليتمكن بعد محاولتين فاشلتين من فرض سلطته على الأغواط.[10]

3-التحالف الثوري بين ورقلة والأغواط ضد الاحتلال الفرنسي: في سنة 1852 قرر الحاكم العام بالجزائر "راندون Randon" [11] السيطرة على الجنوب الجزائري لتأمين التل وفتح الأبواب لحملات جديدة واستغلالها لتجارة العبيد السود، والعمل على تجذير الاستعمار

الفرنسي وإنهاء معضلة الصحراء، وفي سبيل تحقيق ذلك أصدر قرارا يقضي بتوقيف خليفة الأغواط "أحمد بن سالم"، ويظهر أن سبب هذا التوقيف أو العزل راجع إلى سوء التسيير الذي كرسه بواحة الأغواط واستياء سكانها منه ومن الفرنسيين الذين نصبوه[12] وإلى تورط أخيه يحي بن معمر بن سالم بصفته آغا الأغواط مع شريف ورقلة محمد بن عبد الله الذي يقود الاضطرابات التي ظهرت في الصحراء ضد الاحتلال الفرنسي.[13]، فقد جمع هذا الأخير عددا من الثائرين من قبائل صحراوية عدة، كما أسلفنا. فهاجمت القوات الاستعمارية الفرنسية بالتعاون مع الصبايحية والزواف، الثوار الصحراويون عند مشارف وادي جدي في 12 ماي 1852، ونجحت في تشتيت المشاة والفرسان والجمال.

أدرك جنرالات فرنسا أن الروح الثورية يمكن لها أن تتجدد، فلا بد من مراقبة تحركات القبائل الصحراوية والتحكم فيها، فقرر الحاكم العام راندون، في نهاية سبتمبر 1852، إرسال مجموعتين عسكريتين نحو الجنوب، الأولى بقيادة الجنرال بليسيي **Le Général Pélissier** [14]–وهو القائد العام– والثانية بقيادة الجنرال يوسف [15]**Général Yusuf**، وكانت مهمتهما المعلن عنها هو إنشاء برجي مراقبة، أحدهما في البيوض والآخر يقع في الجلفة بأرض أولاد نايل.[16] أما الجنرال ماكماهون **Mac-Mahon** (1808–1893) فقد سلك طريقه نحو بسكرة لحماية ظهر بليسيي ويوسف من جهة وحماية المقاطعة القسنطينية من جهة أخرى.[17]

وفعلا، لم ييأس محمد بن عبد الله الثائر، فقد خطط لنقل ثورته إلى مدينة الأغواط المحصنة مستغلا الانشقاقات والنزاعات العروشية داخل المجتمع الأغواطي، لكن تحالف الأغواطيين وإفشال محاولة شريف ورقلة التحريضية، جعلت هذا الأخير ينسحب إلى جهة مجهولة وشاع بين الفرنسيين وأعوانهم من الجزائريين أنه سلك طريقا نحو الجنوب الصحراوي.

ونعتقد أن الأغواطيين علموا بمطاردة الجنرال يوسف للثوار فأرادوا إنقاذ مدينتهم من دمار الحرب بين ثوار شريف ورقلة وجيش فرنسا الاستعمارية. لهذا لما دخل الجنرال يوسف مدينة الأغواط، استقبل بالهتاف والترحاب من طرف سكان الأغواط، فأكد الجنرال على ضرورة تلاحم أعراش الأغواط وتذويب الصراعات والنزاعات القائمة، ثم قام بتركيز حكم المدينة وإدارة شؤونها بين يدي ابني خليفة الأغواط السابق "احمد بن سالم" كما نصب ضابطا

من الأهالي كمستشار للإدارة الفرنسية وترك قوة منظمة من سكان الأغواط لدعم أمن المدينة ونعتقد أنها تلعب دور شرطة المدينة.[18]

وفي 17 أكتوبر 1852 عاد الجنرال يوسف إلى مقر قيادته بالجلفة، ووصلته معلومات تفيد أن شريف ورقلة الثائر محمد بن عبد الله لم يتجه نحو الجنوب بل التجأ إلى جبل عمور الواقع غرب مدينة الأغواط بمسافة غير بعيدة، بهدف غزو القبائل المتخاذلة والمتعاونة مع الجيش الفرنسي، لكنه لم يفلح في ذلك، فانسحب نحو الجنوب، وعادت مدينة الأغواط إلى هدوئها واستقرارها لمدة زمنية وجيزة، وقرر عندئذ الجنرال يوسف مغادرة حصنه بالجلفة والتحرك في أثر محمد بن عبد الله، حتى يقطع الطريق بينه وبين الأغواط. وقد نجحت حملة الجنرال يوسف في جنوب الجزائر، فبعد مسيرة دامت 24 ساعة، ألقى الجنرال المذكور القبض على أنصار شريف ورقلة الثائر وقد حطوا رحالهم بوادي ريغ، فقتل منهم 200 رجل ونهب 2000 جمل و20000 رأس غنم، وكان ذلك في 17 نوفمبر 1852.

ورغم هذه الهزيمة التي ألحقت بالثوار فإن محمدا بن عبد الله لم يعلن استسلامه للفرنسيين المحتلين، فقرر معاودة الكرة على الأغواط بكامل جيشه، فلما دخلها بدأ يحض سكانها على الجهاد ونصرته ضد أعداء الإسلام، ويظهر أن دعواته لم تؤت أكلها، فبمجرد قدوم الجنرال يوسف إلى الأغواط للقبض على محمد بن عبد الله، انقلب سكانها على شريف ورقلة واستقبلوا للمرة الثانية، الوحدات العسكرية الفرنسية وقائدهم يوسف بكل ترحيب.

وقع القتال بين بين الثوار والعساكر الفرنسيون الذين تمكنوا من حسم المعركة خارج أسوار مدينة الأغواط، وقد خسر محمد بن عبد الله 200 من رجاله، واضطر رفقة مقاتليه إلى التحصن بمدينة الأغواط، وقد استغرب الفرنسيون عن مغزى الترحيب والاحتضان الذي لقيه ثوار شريف ورقلة من قبل سكان الأغواط وهم الذين انقلبوا عليه مرتين متتاليتين مفضلين الانحياز إلى الصف الفرنسي.

علم الجنرال يوسف بعواقب هذا التحالف الورقلي-الأغواطي وتخوف من نتائج المقاومة العنيدة التي ستكلفه عددا كبيرا من المقاتلين، فقرر دعوة الجنرال بليسيي لمساعدته، ومكث ينتظر على بعد 1.800 متر من سور المدينة يراقب الوضع ويمنع أية تعزيزات للأغواط.[19]

4- الحصار والحرب على الأغواط (ديسمبر 1852): استجاب الجنرال بليسيي لطلب المساعدة من لدن الجنرال يوسف حيث وصل الأغواط يوم 02 ديسمبر 1852، وكانت قواته

تتكون من ثمانية كتائب للمشاة وثمانية فرق من الفرسان وأربعة مدافع خاصة بالجبال وأربعة أخرى خاصة بالهضاب، ثم جمع الجنرال بليسيي مجموعتين عسكريتين إضافيتين من بوغار ومن بوسعادة، تتكون كل واحدة من أربعة كتائب مجهزة بالمدافع ولوازم الحصار[20].

وفي 04 ديسمبر 1852 كان الجيش الفرنسي مستعدا للهجوم على المدينة واختراق أسوارها، وقد تمكنت فرق الخيالة في صبيحة يوم 04 ديسمبر من إخلاء ضواحي المخيم العسكري، لتركيز المجهود الحربي على الأسوار التي تتحكم فيها ثلاثة أبراج، فنصبت بطارية مدفعية لقصف الأبراج والسور معا. وفي انتظار إشارة انطلاق الهجوم، أصيب الجنرال بوسكارن Bouscarren برصاصة في ركبته وهو يعاين المدفعية وكان جرحه خطيرا وبعد أيام قلائل توفي وكان لذلك دورا في الانتقام الذي أبداه العساكر الفرنسيون تجاه الثائرون وهم عزل.

فتحت البطارية نيرانها على الساعة السابعة صباحا، وكان إطلاق النار مركزا على البرج المركزي باعتباره الأعلى من البرجين الآخرين، ولما تم للفرنسين إخراج الثوار من البرج المركزي تم نقل القصف المدفعي نحو البرج الواقع على اليمين، لينتقل الضرب الناري نحو جدار السور الرابط بين البرجين المذكورين بهدف شق ممر للجنود الفرنسيين والقومية المحاصرين للمدينة.

وفي الساعة العاشرة صباحا كانت الثغرة جاهزة رغم جهود المقاومين لترميمها، ولما عجزوا عن ذلك خصصت فرقة من الثوار للدفاع عن الثغرة، فهاجمتهم مجموعة عسكرية من الزواف وخمسون مقاتلا من المشاة، ثم نزلت إلى المدينة دون أن تعترضها مقاومة إلى أن وصلت قصبة الأغواط حيث منزل الخليفة أو حاكم المدينة، فرفع على سقفه العلم الفرنسي. ولما تعالت أصوات الزواف[21] بالنصر، كان لزاما على الجنرال يوسف دخول المدينة بسلام، فنصب أولا السلالم وتم تجاوز الأسوار وفتحت الأبواب وتقدم العساكر إلى وسط المدينة، وفي غضون 4 5 دقيقة بلغ الجنرال يوسف منزل الخليفة وحوله إلى مقر للقيادة العسكرية الفرنسية بالأغواط[22].

5-نتائج الحرب:

أ- الخسائر من كلا الطرفين:

– بالنسبة للطرف الفرنسي: ذكرت الكتابات التاريخية الفرنسية أن حرب الأغواط كلفت الجيش الفرنسي 186 رجلا بين قتيل وجريح، وعلى رأسهم الجنرال بوسكارن الذي سبق ذكره، ونقيب الزواف "مراد".

بالنسبة للطرف الجزائري: في هذا الصدد نجد الروايات تختلف، حول طريقة معاملة الجيش الفرنسي للأغواطيين الذين احتضنوا الثورة، فبعضهم يتحاشى الحديث عن موضوع مأساة الأغواطيين، والبعض الآخر يتناول المأساة بشكل عام ويبرئ أعمال القتل التي ارتكبها الجيش الفرنسي بحق الأغواطيين، وصنف ثالث يفضح جرائم فرنسا الجماعية وينقل شهادات لشهود عيان ويقدم بعض التفاصيل، فمثلا بالنسبة للصنف الأول، نجد المؤرخ العسكري بيار مونتانيان **Pierre Montagnon** هو من يمثله حيث تكلم عن حرب الأغواط ولم يفرد للجريمة سوى جملة واحدة وهي أن الجيش الفرنسي قتل قسما من الأغواطيين وقسم آخر لقي معاملة حيوانية.[23] وبالتالي هو يلمح إلى المأساة الأغواطية لكنه لا يقدم تفاصيل .

أما الصنف الثاني ويمثله ليون جاليبار **Léon Galibert** فقد التف حول الجريمة وذكر أن الأغواط خسرت أكثر من 700 رجل، وأن الذين قتلوا هم الذين حملوا السلاح ضد الجيش الفرنسي، وأن النساء والأطفال تم الإشفاق عليهم، وقدم على الجنرال بليسيي أكثر من 600 رجل طالبين عفوه، ولم يبين الكاتب المذكور، مصيرهم، هل كان الأسر أم العفو أم القتل؟ ثم قال أن عددا قليلا من الثائرين نجح في الهروب من الواحة واختراق صفوف الفرسان ومن بينهم محمد بن عبد الله شريف ورقلة وقائد الثورة الذي فر إلى الصحراء متأثرا بجراحه[24].

وأخيرا يقدم الصنف الثالث الممثل في المؤرخ شارل أندري جوليان بعض الموضوعية ويصف الجريمة التي اقترفها الجيش الأغواطي بترخيص من قيادته (الحاكم العام راندون، والجنرال بليسيي، والجنرال يوسف) ويذكر أن الفرق العسكرية الفرنسية قتلت كل الثائرين الذين لم يتمكنوا من الفرار والالتحاق بشريف ورقلة محمد بن عبد الله، ويستطرد قائلا أن هؤلاء يبررون أعمال التقتيل بأنها ضرورة فرضتها حرب الطرقات أو الشوارع داخل مدينة الأغواط، لكن أحد العناصر الفرنسية الحاضرة بعين المكان وقتذاك، كتب رسالة لبربروجر **Berbrugger**[25] يذكر له فيها أن المدينة تم احتلالها بسهولة، وأن الخسائر الفرنسية من قتلى وجرحى كانت شبه منعدمة مقارنة بخسائر الثائرين. ولمدة ثلاثة أيام انشغل العساكر بحرق الجثث أو جرها إلى الآبار وحتى الحيوانات لم تسلم من آلة القتل الفرنسية حيث تم خلط جثث

الثوار بجثث الجمال والخيول والحمير ورميت مجتمعة في الحواسي». وبعد شهر واحد بدأت النسور والغربان تحوم فوق ركام الجثث. وأضاف مستشار الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث أنه في الأيام الثمانية الأولى من احتلال الأغواط كان الجيش الفرنسي يقوم بتنفيذ حكم الإعدام بدون محاكمة بحق 12 إلى 15 شخص في اليوم من الثوار المستسلمين، وأن سيوف فرق الصبايحية فعلت فعلتها ويقصد هنا أنها حفيت.

وبعد ستة أشهر من هذه المجزرة غير البطولية حسب تعبير جوليان الفرنسي، ورد من أحد الضباط بالأغواط أن العساكر الفرنسيين قتلوا فتاتين من أجل سرقة مجوهراتهما، وهذا ينافي ما ذكر أن الجيش الفرنسي قد التزم باحترام النساء. وذكر الضابط الشاهد على الجريمة أن طيور الحمام هجرت المدينة، ثم اختتم شهادته بأن سكان الأغواط مسالمين وليسوا من الأقوام المتعصبة للعنف[26]، وكأن الشاهد يتساءل ضمنيا، لماذا أجرم الفرنسيون بحق الأغواطيين المسالمين؟

ب-ملاحقة الجيش الفرنسي للثائرين وتثبيت المراكز العسكرية: علم الجنرال بليسيي بعد مساءلة الثوار المستسلمين أن قائدهم محمد بن عبد الله يعاني من جروح وقد فر إلى الصحراء مع عدد من مقاتليه، ليؤكد له بعد ذلك فرسان الزواف أنهم علموا بتحركات عسكرية في جنوب شرق واحة بني ميزاب بين قرارة وبريان في الجنوب الوهراني، على بعد 200 كيلومتر من الأغواط، فأمر الجنرال بليسيي- وحتى لا تصل العدوى إلى الأغواط مرة ثانية- آغا أولاد سيدي الشيخ الشراقة المسمى "حمزة" لقيادة القومية العرب لجهة الغرب، ومطاردة القبائل الموالية لشريف ورقلة محمد بن عبد الله[27].

توغلت القوات الفرنسية في الصحراء لمدة خمسة أيام بين المنيعة وواد زرقو، وفي اليوم السادس وجدوا دواوير الثائرين، وهي دواوير الأربعاء وأولاد نايل وعدد من الموالين لشريف ورقلة الهاربين من الأغواط. فهاجمهم الزواف وقتلوا منهم العشرات وشردوا الباقي ونهبوا 1.100 جمل و5.000 رأس من الأغنام، والخيم، والزرابي والمؤونة ولوازم مختلفة، وكان القصد من وراء ذلك زرع الرعب في المناطق الصحراوية وإثبات هيبة الجيش الفرنسي والزواف العرب والقضاء النهائي على الروح الثورية لشريف ورقلة وأنصاره.[28]

ويذكر الكاتب العسكري مونتنيان أن الآغا حمزة، تمكن من كسر شوكة محمد بن عبد الله الورقلي، في منطقة تدعى النقوسة، أو نقاوس (24 كيلومتر شمال ورقلة) ودخل واحة

ورقلة في نوفمبر 1853 وكافأه الحاكم العام راندون بأن عينه خليفة للمنطقة الممتدة من ورقلة إلى جيري فيل Géry ville وهي مدينة البيض لاحقا.(29)

أما الثائر محمد بن عبد الله فقد فر إلى تخوم الجريد التونسي ليظهر من جديد في توقرت سنة 1854، بتأييد من سليمان بن جلاب الذي كان قد عزله الفرنسيون وعوضوه بابن عمه عبد القادر بن جلاب، وصار محمد بن عبد الله سيد الواحة بعد إقصائه لبني جلاب الذين أبدوا ولاء الطاعة والخنوع للفرنسيين منذ 1844.

وأمام هذا التطور الجديد لمحمد بن عبد الله نادى راندون 10.000 مقاتل وقومية العقيد مارنيي Marnier المكونة من 1.350 فارس و400 من المشاة العرب وسحقوا قوات محمد بن عبد الله الورقلي في منطقة مقارين التي تبعد عن واحة توقرت بـ 08 كيلومترات يوم 29 نوفمبر 1854. ومن ثمة تمكنت قوات العميد دي فو Desvaux التي لم تشارك في العملية من دخول توقرت يوم 28 ديسمبر 1854 بعد سيطرتها على واحات وادي ريغ وواد سوف وقد جعل من وادي ريغ مركزا عسكريا رئيسيا ليتم تطويق التراعات الصحراوية القادمة من الجهة التونسية.(30)

أما الجهة المغربية فاعتبرها القادة العسكريون الفرنسيون مصدر قلق، ولتأمينها يتوجب على قوات باريل Barail غزو الميزاب مجددا انطلاقا من الأغواط وفرض على واحاتها السبع دفع الضريبة السنوية للدولة الفرنسية كعربون طاعة وولاء، وهو الأمر الذي قبلت به واحات ميزاب بشكل نهائي سنة 1882، وفي السنة نفسها تم احتلال مدينة غرداية.(31)

وهكذا نلاحظ أن الحاكم العام راندون وبعدما حيرته فكرة الاختيار بين سحق الواحات الثائرة مثل واحة الزعاطشة سنة 1849 أو احتلالها وتثبيت مراكز عسكرية بها، توصل إلى اعتماد الاختيار الثاني ولهذا نلاحظه يؤسس لمراكز عسكرية في الأغواط وتوقرت وغرداية ووادي ريغ وسوف وواحات ميزاب السبعة لتكون قواعد خلفية للتوسع نحو أعماق الصحراء الجزائرية وربطها بالصحراء الكبرى حيث النفوذ الفرنسي، وفي الوقت ذات تكون قواعد أمامية لتأمين الأقاليم التلية وصد الأخطار القادمة من الجنوب.

وبالنسبة للثائر محمد بن عبد الله شريف ورقلة فنلاحظ أن مسيرة كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي لم تتوقف حيث انسحب إلى تونس مجددا ومكث بها إلى سنة 1858 حيث ظهر بجيشه في توات والأغواط أملا في استعادتهما واهتم هذه المرة بأمره الباشاغا بوبكر ولد حمزة ولد

سيدي الشيخ وأخذ يطارده حتى حاصره في العرق الغربي واعتقله أواخر 1861 وسلمه إلى الفرنسيين الذين نفوه إلى فرنسا وفرضوا عليه إقامة جبرية في سجن عسكري بساحة دو بريقو De Perigot

ولا ندري متى أطلق سراحه، لأنه ظهر من جديد في ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864، لينسحب إلى تونس لعدة سنوات أخرى ويظهر مرة أخرى سنة 1871 ويربط صلاته بابن ناصر بن شهرة في تقرت وببوشة في ورقلة، وبأولاد خليفة الثائرين ومحي الدين بن الأمير عبد القادر ليتزعم الثورة في تبسة، ولما كان يركز على غزو القبائل الجزائرية غير المتعاونة مع ثورته بدأ تأثيره يتلاشى تدريجيا إلى أن تراجع إلى منطقة الكاف التونسية، فاعتقله الباي وسجنه سنة 1876 بعد تورطه في قتل حاكم سوف وهو من الصبايحية والأعوان للفرنسيين، وبعد التحقيقات رفعت عليه الإقامة الجبرية ليهاجر إلى ليبيا غير بعيد عن طرابلس عقب فرض الحماية الفرنسية على تونس سنة 1881، ليعود مجددا إلى الجنوب التونسي إلى أن يتوفى سنة 1895.[32]

خاتمة: علينا التنبيه إلى أن الحاكم راندون قد سعى إلى تغطية أو تبرير جرائمه بحق سكان الأغواط المسالمين، وهي جرائم تسيئ إلى سمعة فرنسا، كدولة متحضرة، فأمر بتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية سنة 1856، يرأسها أدريان بربروجر Adrien Berbrugger والتي اتخذت منبرا إعلاميا حمل اسم المجلة الإفريقية La Revue Africaine

والملفت للانتباه أن من بين كل المخطوطات العربية التي جمعتها الجمعية التاريخية، وقع الاختيار على كتاب أحمد بن هطال التلمساني -الذي قيد غزوة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي سنة 1785 وكيف تعامل مع قبائلها سواء العاصية أو الطائعة، ومن بين القبائل العاصية قبائل الأغواط- موضوعا للترجمة والتعليق والنشر بالمجلة الافريقية، وكان ذلك عبر العدد الأول سنة 1856 والعدد الثاني سنة 1857، وتم تكليف جورجيوس Gorguos بترجمة الرحلة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية مع التعليق، وأحيانا تتدخل هيئة تحرير المجلة الإفريقية بإضافة بعض التعاليق التي أغفلها جورجيوس. كل ذلك بهدف إعلام رواد الحضارة والحرية أن ما فعله راندون الفرنسي المسيحي البروتستانتي، من غزو لقبائل الصحراء والسيطرة على الأغواط سنة 1852م، وما نتج عنه من قتل وحرق وتشريد، قد فعله قبله الباي محمد الكبير العثماني المسلم، لأن كلاهما واجها كرجال دولة، عصيانا وتمردا من لدن سكان

الأغواط، مما يعني، لدى المستشرقين، أن القمع والفتك عمل مشروع من أجل أمن الدولة وحياتها.

الهوامش:

(1)- **Galibert, Léon. L'Algérie Ancienne et Moderne, depuis les premiers établissements des carthaginois jusqu'à l'expédition du général Randon en 1853. Furne et C^le^, librairies-Editeurs, 1861. P : 613.**

(2) دواني، محمد الطاهر. " المشاريع الاستعمارية في الصحراء والمقاومة الوطنية –حملة فلاترز 1880–" مجلة الباحث، العدد 04، المطبعة المركزية للجيش، نوفمبر 1986، ص ص : 74، 76.

(3) نصادف شخصية أخرى بهذا الاسم " أحمد بن سالم" ضمن قائمة أبطال المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر، حيث ينحدر من أسرة مرابطية من منطقة القبايل، اشتهر بعلمه وتقواه، وعينه الأمير عبد القادر خليفة على تلك المنطقة سنة 1837، وظل يحارب تحت إمرته مدة عشر سنوات، وفي 1847 حضر إلى سور الغزلان وسلم نفسه للفرنسيين فأرسل إلى دمشق وهناك توفي سنة 1858. عن أديب حرب. التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، ج2،دار الرائد للكتاب، الجزائر، ص 21.الهامش 1.

(4) المرجع نفسه، ص: 78.

(5) حرب، أديب. التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808–1847. دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط02، 2004، ص 32.

(6) **Galibert, Léon. Op, cit. p : 613.**

(7) **Idem.**

(8) **Ibid, pp : 613-614.**

(9) هناك شخصيتين ثائرتين بنفس الاسم " محمد بن عبد الله" أحدهما يلقب بـ" بومعزة" وهو ليس موضوع دراستنا، والثاني الذي يعنينا يلقب بشريف ورقلة، وأصله غير متفق عليه فمنهم من يقول أنه ينحدر من قبيلة جزائرية بالغرب الجزائري ومنهم من يرى أنه من أصل تونسي، وكل ما في الأمر أنه وقف إلى جانب الاحتلال الفرنسي في محاربة الأمير عبد القادر، وبعد أن عينه الجنرال بيجو **Bugeaud** خليفة على تلمسان، بدأ يضايقه إذ راودته شكوكا في إخلاصه للمشروع الاستعماري الفرنسي ولسياسته القائمة على الإبادة والأرض المحروقة، فانقلب محمد بن عبد الله على الفرنسيين وخاض مسيرة ثورية امتدت من 1842 إلى 1895 تتخللها فترات هدوء واسترجاع الأنفاس وسنوات سجن وأسفار...

(10) **Montagnon, pierre. La Conquête de l'Algérie 1830-1871. Editions pygmalion Gérard watelet, Paris, 1986. P : 387.**

(11)ولد جان جاك لويس قيصر ألكسندر راندون **Jean Jacques louis césar Alexandre Randon** في الجيش الفرنسي سنة 1812 عن عمر يناهز 17 سنة وارتقى إلى رتبة قبطان سنة 1814 واقام بموالاته لنابليون بونابرت، وفي سنة 1838 بدأ مسيرته المهنية بوهران برتبة عميد، ثم انتقل إلى عنابة برتبة ماريشال تخييم سنة 1841، ولواء سنة 1847 . وفي سنة 1848 أشرف بباريس على إدارة الشؤون الجزائرية بوزارة الحربية ثم اختير وزيرا للحربية في جانفي 1851.ولما وقع الانقلاب على النظام الجمهوري بقيادة نابليون الثالث في 02 ديسمبر 1851، كان راندون من مؤيديه، وبالتالي حظي بمنصب الحاكم العام للجزائر –الذي كان يشغله بليسيي بالنيابة– لمدة ست سنوات ونصف من ديسمبر1851 إلى جوان 1858 ليرتقي للمرة الثانية إلى وزير الحربية بين 1860–1867، وتوفي سنة 1871 بجنيف السويسرية.

يتمذهب راندون بالبروستانتية ويتعلق بالتقاليد الاستعمارية ولا يؤمن بالنظريات الجديدة، حريص على التفاصيل وعزم على استكمال الاحتلال الفرنسي لمناطق الجزائر، ويقتدي كثيرا بالماريشال بيجو، وبالتالي لا نستغرب ما حدث للأغواط.

[12] Julien, Charles André. Histoire de l'Algérie contemporaine –la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871- Presse Universitaires de France, Paris, 1964, p : 391.

[13] بوعزيز يحي. ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين. الجزء الأول (ثورات القرن التاسع عشر)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 .ص 159 .

[14] عاش الجنرال بليسيي Pélissier بين 1794-1864، يحمل فكرا تسلطيا شبيها براندون وبيجو، اقترف جرائم فظيعة في الأغواط، وشغل منصب الحاكم العام للجزائر مرتين الأولى بالنيابة بين 1849-1851، والثانية بين 1858-1864.

[15] عاش الجنرال يوسف بين 1808-1866، أتقن اللغة العربية وهو بالجزائر، وقلد الجزائريين في هندامهم وحركاتهم وصار يفقه أفكار واحتياجات سكان الجزائر، وارتكب جرائم في حق الجزائريين مثلما حدث في الأغواط وجرجرة وهو الذي رفض الأمان الذي تقدمت به قبيلة سنة 1857 حتى يسجل لنفسه إنجازا كارثيا مثل سابقيه من الجنرالات.

[16] Galibert, Léon. Op, cit. p : 611-612.

[17] Montagnon, pierre.Op, Cit. P : 387.

[18] Galibert, Léon. Op, cit., p : 612

[19] Ibid, p : 613

[20] Ibid, p : 614

[21] الزواف: مصطلح يميز فترة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وهي مجموعات عسكرية تشكلت في بادئ أمرها من قبيلة الزواوة، ثم انضمت إليها فيما بعد من العرب والزنوج، وشبهها سانت آرنو Saint Arnaud بالحرس الامبراطوري في افريقيا، وعلى أية حال قدمت فرق الزواف خدمات جليلة للفرنسيين في قهر الجزائريين وتثبيت أركان الاستعمار.

[22] Galibert, Léon. Op, cit, p : 615.

[23] Montagnon, pierre. Op, cit, P : 388.

[24] Galibert, léon. Op, cit, P 615.

[25] أدريان بربرجر Adrien Berbrugger : هو مدير الجمعية التاريخية الجزائرية التي تأسست سنة 1856 بأمر من الحاكم العام راندون، وقد اهتم بجمع ودراسة الوثائق والمخطوطات الجزائرية في سبيل خدمة النظام الاستعماري الفرنسي.

[26] Julien, charles André, Op, Cit, PP :391-392.

[27] Galibert, léon.op, cit,P 615.

[28] Ibid, P 616.

[29] Montagnon, pierre. Op, cit, P : 388. Et Julien, ch. A. op, cit, p : 392.

[30] Julien Ch. A. op, cit, p : 392.

[31] Montagnon, pierre. Op, cit, P :388.

[32] بوعزيز يحي. ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين . الجزء الأول(ثورات القرن التاسع عشر). دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009. ص ص: 162-167.